فن تشكيلي

عبود يذيب الواقع ويعيده مقطراً إلى أعيننا

كتابة تجريدية لشفيق عبود

اقام مؤخرا الفنان اللبناني شفيق عبود معرضا للوحاته الجديدة في غاليري بريجيت شحادة في باريس، اثار اهتمام الاوساط الفنية الباريسية لما يتميز به فن عبود من شاعرية في دمج الواقع الانطباعي بشفافية التجريد.

المعروف عن شفيق عبود انه استقر في باريس منذ العام ١٩٤٧ وتفاعل مع المحترفات الفنية الباريسية (درس الفن في محترف اندريه لوت وفرناند ليجيه ومتزنجر وهوزيه وجودون) وبدا اسمه الفني يؤكد وجوده في الساحة الفنية الباريسية والعالمية منذ العام ١٩٥٥، اقام بعدها العديد من المعارض في فرنسا وفرنكفورت وهولندا وامستردام، وحاز على عدة جوائز عالمية، ودخلت لوحاته عدة متاحف فرنسية واوروبية ودخل اسمه في قاموس الفن التجريدي العالمي. كما نفذ في العام ١٩٧٩ جدارية سيراميك ونحاس لبلدية مدينة باريس.

الناقد باتريك ولدبرغ وصف فن عبود في كاتالوغ المعرض بانه «مفاجاة» واضاف «ان هذا الشعور يكاد يكون نادرا هذه الايام.. فهو ما بين البساطة والوهج، اي ما بين المسلكين الرئيسيين للفن التجريدي. فعبود يطرح اقترابا من الواقع يتمثل في الذوبان. فهو لا يشاهد الواقع وانما يغطس فيه، يدور ويتحد معه، ليعيده امام اعيننا مقطرا برغباته. فالواقع في فنه، مذاب ومشيد من جديد، بان واحد، حسب قوانين الشفافية.. والنغم والاريج. فالمنظر، هو الداخل، داخل الطبيعة الصامتة. وشرق عبود هو طفولته، التي تستعيد وهج الف ليلة وليلة.. انه فرح عبود واجزاء من فرح منسي لواقعية متغيرة».

التجريد واشعاعات الحلم الأخضر

تجريد لموريس استيف

● يقام خلال فترة الصيف في متحف كونتيني في مارسيليا معرض موسوعي يشمل اهم اعمال الفنان التجريدي موريس استيف، الذي تدرج في الاوساط الفنية الباريسية من طالب حر في محترفات فناني مونتبارناس، الى مؤيد للسورياليين ومساعد للتجريدي «ديلونيه» في تزيين المعرض العالمي للفن التجريدي الذي اقيم في باريس العام ١٩٣٧.

المعروف عن موريس استيف (٧٧ عاما) انه ابتعد عن مزاولة اختبارات التجريد الهندسي وبقي امينا لما يسمى بالتيار التجريدي العقلاني الباحث عن شاعرية الضوء والتكوين الحيوي المستوحي من اشعاعات الحلم الاخضر للطبيعة. فالمسار الذي قطعه «استيف» مع السوريالية، بقى راسخا في وجدانه وظهرت ملامحه في تجاربه التجريدية.

ينتقل معرض التجريدي استيف، في الخريف المقبل الى اللوكسمبورغ.

عائلة ابراهيموف تتوارث الرقش الاسلامي

عائلة ابراهيموف في متحف الفن التطبيقي في اوزنجستان

● المعروف ان الحرف الفنية الاسلامية تفاعلت مع حضارات عالمية، خلال عدة قرون، واكدت استمراريتها في تغذية الفنون الشعبية العالمية والاستفادة من معطياتها مع التاكيد على شخصيتها المميزة.

من الحرف الاسلامية التي لاتزال تدهش العالم بروائعها، حزمة الرقش، التي يعتبرها الفنانون التشكيليون في اوروبا من اهم فنون « الارابسك ».

ومن الاخبار الواردة من الاتحاد السوفياتي، ان عائلة نعمت ابراهيموف ادخلت مؤخرا روائع من الرقش الاسلامي الى عدة متاحف (موسكو، لننغراد، اوزنجستان)، وذلك بعد تاسيسها مجمعا اخباريا للفن التطبيقي الاسلامي في طشقند. فقد اعتبرت هذه العائلة من اهم «معلمي» حرفة الرقش في اوزنجستان، توارثت اسرار تنفيذ روائعها منذ عدة قرون.

قصة موت معلن

غابرييل غارسيا ماركيز

ترجمة صالح علماني

منذ اقل من اربعة اشهر ، وبالتحديد في شهر نيسان الماضي ، نشر الكاتب الكولومبي المعروف غابرييل غارسيا ماركيز رواية جديدة في المكسيك بعنوان « قصة موت معلن » ، بعد توقف عن نشر اعماله الادبية استمر لاكثر من خمس سنوات .

وقد اثارت هذه الرواية الجديدة جدلا واسعا في الاوساط الادبية الناطقة باللغة الاسبانية ، واعتبرها ماركيز ـ في مقابلة مع صحيفة « البابيس » الاسبانية ـ بانها افضل ما كتب حتى الان . ويجدر بالذكر ان الرواية صدرت في الشهر الماضي في اسبانيا بطبعة من مليون نسخة ، بيع منها في اليوم الاول حوالي ٣٥ الف نسخة .

وتنشر « السفير » الثقافي اليوم ، الفصل الاول من هذه الرواية ، التي انتهى من ترجمتها صالح علماني ، والتي ستصدر قريبا في بيروت .

في اليوم الذي كانوا سيقتلونه فيه ، استيقظ سنتياغو نصار في الساعة الخامسة والنصف صباحا لينتظر المركب الذي سيصل فيه المطران . كان قد حلم بانه يجتاز غابة من اشجار التين حيث كان يهطل رذاذ ناعم من المطر ، واحس في احلامه بالسعادة للحظة .

لكنه ما ان استيقظ حتى شعر بانه ملوث بكامله ببراز عصافير . « كان يحلم بالاشجار دوما » . هكذا قالت لي والدته ، بلاثيدا لينيرو ، وهي تستحضر بعد سبع وعشرين سنة تفاصيل يوم الاثنين المنكد ذاك . وقالت لي : « في الاسبوع السابق كان قد حلم بانه يمضي وحيدا في طائرة من ورق القصدير وهي تطير ما بين اشجار اللوز دون ان يصطدم بها » . لقد كانت لها سمعة طيبة احرزتها بتفسيرها الصحيح لاحلام الاخرين ، اذا ما رويت لها تلك الاحلام قبل ان تتناول الطعام ، لكنها لم تتنبه الى اي فال مشؤوم في هذين الحلمين اللذين حلم بهما ابنها في اصباح الايام التي سبقت موته .

ولم ينتبه سنتياغو نصار كذلك الى النذير . كان قد نام قليلا وبشكل سيء ، دون ان يخلع ملابسه ، واستيقظ وهو يعاني المًا في راسه وترسبات كترسبات ركاب نحاسي في حلقه ، وفسر ذلك بانه مجرد آلام طبيعية بتاثير حفلة الزفاف التي امتدت الى ما بعد منتصف الليل . جميع الاشخاص الذين التقى بهم منذ خروجه من البيت في الساعة السادسة وخمس دقائق الى ان جرى تمزيقه كخنزير بعد ساعة من ذلك ، يتذكرون بان بعض النعاس كان باديا عليه ولكن مزاجه كان جيدا ، وقد تحدث معهم جميعا بشكل عرضي وقال ان هذا اليوم هو يوم بديع ، ولم يكن اي منهم متاكدا اذا ما كان يشير بذلك الى حالة الطقس . وكثيرون ربطوا في الذاكرة بانه كان صباحا مشرقا يتخلله نسيم بحري ياتي من خلال بيارات الموز ، كما يمكن للمرء ان يتخيل كيف يكون الصباح في شهر شباط من تلك الحقبة . ولكن غالبيتهم كانت متفقة بانه كان طقسا ماتميا ، بسماء معكرة ومنخفضة ورائحة كثيفة من المياه الراكدة ، وانه كان يهطل في لحظة المصيبة رذاذ خفيف كالذي رآه سنتياغو نصار في غابة الحلم . كنت حينها استعيد قواي بعد حفلة الزفاف في حضن ماريا اليخاندرينا ثيرفانتيس الاومومي ، واستيقظت بصعوبة على ضجة النواقيس وهي تقرع بذعر ، لانني ظننت بانهم يقرعونها احتفاء بالمطران .

ارتدى سنتياغو نصار بنطالا وقميصا من الكتان الابيض ، كلاهما بلا نشاء ، مثلهما مثل البنطال والقميص اللذين ارتداهما في اليوم السابق من اجل حفلة الزفاف . لقد كان هذا هو زي « المناسبات » . ولولا قدوم المطران لكان ارتدى الملابس الخاكي وجزمه ركوب الخيل التي يذهب بها في ايام الاثنين الى مزرعة الديفينو روسترو ، مزرعة المواشي التي ورثها عن ابيه ، والتي كان يديرها بحكمة بالغة ومع ذلك لم يكن يحصل منها على ربح كثير ، واثناء وجوده في الجبل كان يعلق بحزامه مسدسا من طراز ماغنوم ٣٥٧ ، بامكان رصاصاته المصفحة ، كما كان يقول ، ان تخترق جوادا من خاصرته . وفي موسم صيد الحجل كان ياخذ معه ايضا معدات التصقر . وكان يحتفظ في الخزانة ايضا ببندقية مالينشير شوناور ٣٠،٠٦ ، وبندقية هولاند ماغنوم ٣٠٠ ، واخرى من طراز هورنت ٢٢ مزودة بمنظار تلسكوبي بقوتين ، وبندقية ونشستر تتسع لعدة طلقات . وكان ينام دائما كما كان ينام والده : وهو يخبيء سلاحا داخل جراب الوسادة ، لكنه قبل ان يغادر البيت في ذلك اليوم افرغ المسدس من الطلقات ووضعه في درج الخزانة الصغيرة التي بجانب السرير . « لم يترك السلاح محشوا ابدا » . قالت لي والدته ، وانا كنت اعرف ذلك . وكنت اعرف ايضا انه كان يضع الاسلحة في مكان ويخبيء الذخائر في مكان آخر منفصل تماما ، بحيث لا يتمكن احد ولا بالصدفة من الوقوع في وساوس حشو السلاح داخل البيت . لقد كانت عادة حكيمة فرضها والده منذ صباح احد الايام عندما كانت احدى الخادمات تنفض الوسادة لتنتزعها من جرابها ، فانطلقت رصاصة من المسدس عند ارتطامه بالارض ، وثقبت خزانة الغرفة ، واخترقت جدار الصالة ، ثم مرت كدوى الحرب من خلال غرفة الطعام في البيت المجاور لتحول الى رماد من الجبس تمثال قديس بالحجم الطبيعي موضوع على المذبح الكبير في الكنيسة ، في الجانب الاخر من الساحة ، ولم ينس سنتياغو نصار ، الذي كان حينئذ طفلا صغيرا ، الدرس الذي تعلمه من تلك الحادثة الخطيرة .

صورته الاخيرة التي تحفظها امه هي مروره العاجل في غرفة النوم ، فقد ايقظها بينما كان يحاول العثور باللمس على قرص اسبرين في علبة الادوية الموجودة في الحمام ، فاضاءت النور وراته وهو يظهر في الباب حاملا بيده كاس الماء ، بالوضع الذي ستتذكره فيه الى الابد . وعندها روى لها سنتياغو نصار الحلم ، لكنها لم تول اي اهتمام للاشجار ، وقالت له :

ـ جميع الاحلام التي بها عصافير هي احلام خيرة .

لقد راته وهي في نفس ارجوحة النوم وفي نفس الوضع الذي وجدتها فيه منهكة القوى بفعل آخر ومضات الشيخوخة ، عندما عدت الى هذه القرية محاولا اعادة تركيب مرآة الذاكرة المهشمة الى عدة شظايا متفرقة . لم تكن تميز الاشكال الا بصعوبة حتى في وضح الضوء ، وكانت تضع رقائق طبية على صدغيها لتخفيف الم الراس الدائم الذي خلفه لها ابنها عندما مر لاخر مرة من غرفة النوم . كانت مستلقية على جنبها ، ممسكة باعلى ارجوحة النوم لتحاول النهوض ، وفي الظلام كانت تنتشر رائحة كرائحة حوض العماد التي فاجاتني في صباح يوم الجريمة .

ما كدت اظهر في فراغ الباب حتى اختلط الامر عليها مع ذكرى سنتياغو نصار . « كان يقف هناك » ، هكذا قالت لي . ثم تابعت « كان يرتدي الملابس الكتانية البيضاء المغسولة بالماء فقط ، لانه كان ذا بشرة حساسة جدا لا تحتمل خشونة النشاء » . بقيت لبرهة طويلة جالسة في ارجوحة النوم وهي تمضغ حبوب الرشاد ، الى ان فارقتها اوهام عودة ابنها . عند ئذ تنهدت : « كان رجل حياتي » .

لقد رايته في ذاكرتها . كان قد اتم احدى وعشرين سنة في الاسبوع الاخير من كانون الثاني ، وكان نحيلا ، شاحبا ، له حاجبان عربيان وشعر اجعد ورثه عن ابيه . كان الابن الوحيد لزواج معيشة لم يعرف لحظة واحدة من السعادة ، اما هو فكان يبدو سعيدا مع ابيه الى ان توفي هذا فجاة ، قبل ثلاث سنوات ، وبقي يشبهه وهو مع الام المتوحدة حتى يوم الاثنين الذي مات فيه . لقد ورث عنها الفطرة . وتعلم من ابيه وهو ما يزال طفلا صغيرا استخدام الاسلحة النارية ، وحب الخيول وترويض طيور الصيد الجارحة ، وتعلم منه ايضا فنون الشجاعة والفطنة . كانا يتكلمان فيما بينهما بالعربية ، لكنهما لا يفعلان ذلك اثناء وجود بلاثيدا لينيرو حتى لا تشعر بانها مبعدة . لم يرهما احد ابدا يحملان السلاح في القرية ، والمرة الوحيدة التي احضرا بها صقورهما المروضة كانت للقيام بعرض تصقر في سوق خيري . لقد اضطره موت والده لترك دراسته عند انتهائه من المدرسة الاعدادية ، ليتولى مسؤولية مزرعة العائلة . وبتاهيله الخاص ، كان سنتياغو نصار مرحا ومسالما ، وذا قلب بسيط .

في اليوم الذي كان سيقتلونه فيه ، ظنت امه بانه اخطا في تحديد اليوم عندما راته مرتديا ملابسه البيضاء . « نبهته بان اليوم هو الاثنين » ، قالت لي . لكنه شرح لها بانه ارتدى ملابسه الاحتفالية ليكون جاهزا اذا ما سنحت له فرصة تقبيل خاتم المطران . لم تبد هي اية علامة من علائم الاهتمام وقالت له :

ـ لن يتكرم حتى بالنزول من المركب ـ سيلقي ببركاته كالعادة ، ويمضي من حيث اتى انه يكره هذه القرية .

كان سنتياغو نصار يعرف ان هذا صحيح . ولكن ابهة الكنيسة كانت تفتنه فتنة لا تقاوم . « انها كالسينما » . هكذا كان قد قال لي مرة . اما ما كان يهم والدته ، بالمقابل ، من قدوم المطران هو ان لا يبتل ابنها بالمطر ، اذ انها سمعته يعطس في نومه . نصحته بان ياخذ معه مظلة ، ولكنه اشار لها بيده مودعا وخرج من الغرفة . وكانت هذه هي آخر مرة تراه فيها .

الطاهية فيكتوريا غوثمان ، كانت متاكدة من ان المطر لم يهطل في ذلك اليوم ، ولا في كل شهر شباط فقد قالت لي عندما اتيت لرؤيتها ، قبل موتها بقليل : « بالعكس ، لقد نشرت الشمس الدفء في وقت ابكر مما يحدث في شهر آب » . كانت تقطع ثلاثة ارانب من اجل الغداء ، وهي محاطة بكلاب لاهثة ، عندما دخل سنتياغو نصار الى المطبخ ، وتتذكر فيكتوريا غوثمان دون حب : « كان يستيقظ دائما وعلى وجهه ما يدل على انه امضى ليلة سيئة » . قدمت ابنتها ديفينا فلور ، التي بدات تتفتح ، الى سنتياغو نصار فنجان قهوة خشن مع رشفة من كحول القصب ، كما كانت تفعل كل يوم اثنين لتساعده على تحمل ثقل الليلة السابقة . المطبخ الرحب ، وهسيس النار والدجاجات النائمة على القوائم الخشبية ، كان لهاكلها تنفس صموت . مضغ سنتياغو نصار قرصا اخرا من الاسبرين وجلس ليحتسي فنجان القهوة برشفات بطيئة ، وهو يفكر بتمهل ، دون ان يرفع نظره عن المراتين اللتين تنتزعان احشاء الارانب قرب الموقد . وبالرغم من تقدمها في السن ، فقد كانت فيكتوريا غوثمان تحتفظ بكل جمالها . والطفلة التي ما تزال شرسة بعض الشيء ، كانت تبدو وكانها تختنق باندفاع غددها . امسك سنتياغو نصار بمعصمها عندما اقتربت لترفع الفنجان الفارغ من امامه ، وقال لها :

ـ ها قد اصبحت في السن المناسب للترويض .

رفعت فيكتوريا غوثمان السكين الدامي امامه وامرته بجدية :

ـ افلتها ايها الابيض ، فلن تشرب من هذا الماء ما دمت انا على قيد الحياة .

كان ابراهيم نصار قد اغوى بها وهي في اوج مراهقتها ، ومارس الحب معها لعدة سنوات في اسطبلات المزرعة ، ثم نقلها لتخدم في البيت عندما خمدت عاطفته . وديفينا فلور ، التي كانت ابنتها من زوج جديد ، كانت تعلم انها مرصودة لسرير سنتياغو نصار السري ، وكانت هذه الفكرة تسبب لها قلقا مبكرا . « لم يولد رجل مثل هذا بعد » . هكذا قالت لي ديفينا فلور البدينة الكئيبة ، والمحاطة باولاد انجبتهم من غراميات اخرى . فردت عليها فيكتوريا غوثمان : « انه مثل والده تماما : خراء » . ولكنها لم تستطع تجنب ومضة فزع وهي تتذكر رعب سنتياغو نصار عندما انتزعت بشدة احشاء احد الارانب والقت الى الكلاب بالامعاء الدافئة فقال لها :

ـ لا تكوني همجية . تصوري انه كائن بشري .

لقد احتاجت فيكتوريا غوثمان لحوالي عشرين عاما لتفهم ان رجلا اعتاد على قتل حيوانات عزلاء سيبدي فجاة رعبا مشابها . هتفت فزعة : « رباه ! كل ذلك كان اذن وحيا ! » . ومع ذلك ، فقد كان بها غضب شديد سابق لصباح يوم الجريمة ، فاستمرت تعلف الكلاب باحشاء الارنبين الاخرين ، لا لشيء الا لتنغص على سنتياغو نصار افطاره ، كانا في هذه الحال عندما استيقظت القرية باسرها على رجة الجوار المنبعث من المركب البخاري الذي وصل فيه المطران .

كان البيت عبارة عن مستودع قديم من طبقتين ، بجدران من الواح خشنة وسقف من التوتياء المموج ، ترابط فوقه طيور الرخمة التي تاكل فضلات الميناء . وقد اشيد في زمن كان النهر فيه مفضالا فكانت مراكب شحن بحرية كثيرة ، بما في ذلك بعض السفن المرتفعة ، تغامر بالدخول الى هنا عبر المستنقعات المتشكلة عند مصب النهر . وعندما اتى ابراهيم نصار مع العرب الاخيرين ، بعد انتهاء الحروب الاهلية ، كانت البواخر البحرية قد توقفت عن الوصول الى هنا بسبب تقلب النهر ، وكان المستودع مهجورا . فاشتراه ابراهيم نصار بثمن بخس ليقيم فيه مخزنا للاستيراد لكنه لم يفعل ذلك مطلقا ، وعندما اراد ان يتزوج فقط ، حوله الى بيت للسكن ، حول الطابق الارضي الى صالة تنفع لكل شيء ، واشاد في العمق مربطاً للخيل يتسع لاربعة حيوانات ، وهي حيوانات الخدمة الاربعة ، ومطبخ له نوافذ من جهة الميناء تنفذ منها طوال الوقت روائح الماء الكريهة . الشيء الوحيد الذي تركه على حاله في الصالة هو السلم الحلزوني المستخرج من باخرة

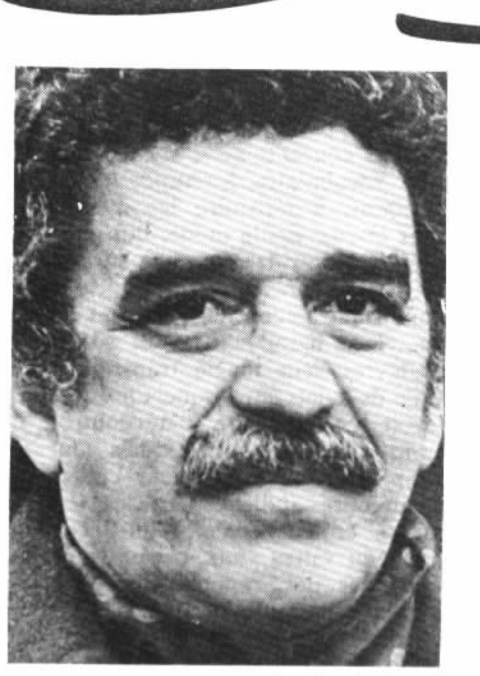

غابرييل غارسيا ماركيز

غارقة ، وفي الطابق العلوي ، حيث كانت توجد مكاتب الجمارك ، قبلا ، اعد غرفتي نوم واسعتين وخمس قمرات للابناء الكثيرين الذين كان يفكر بانجابهم واشاد شرفة خشبية فوق اشجار اللوز التي في الساحة ، حيث كانت تجلس بلاثيدا لينيرو في امسيات شهر اذار لتواسي نفسها في وحدتها . واحتفظ في الواجهة الامامية للبيت بالبوابة الرئيسية وجعل فيها نافذتين بحجم الجسد كاملا وبهما قضبان معدنية مخروطة ، واحتفظ كذلك بالبوابة الخلفية التي اكتفى برفعها قليلا ليمر منها وهو على الحصان ، وحافظ على قسم من الميناء القديم في حالة صالحة للاستخدام . هذه البوابة الخلفية كانت دائما هي الاكثر استعمالا ، ليس لانها المدخل الطبيعي الى المذاود والمطبخ فحسب ، وانما لانها تؤدي الى شارع الميناء الجديد دون المرور في الساحة . اما البوابة الامامية ، ففيما عدا بعض المناسبات الاحتفالية ، كانت تبقى مقفلة بالرتاج ، ومع ذلك ، فامامها ، وليس امام البوابة الخلفية ، كان الرجلان اللذان سيقتلان سنتياغو نصار ينتظرانه ، ومنها خرج هو لاستقبال المطران ، بالرغم من انه اضطر للالتفاف في دورة كاملة حول البيت للوصول الى الميناء .

لا احد يستطيع فهم هذه المصادفات الماتمية الكثيرة ، ولا بد ان قاضي التحقيق الذي حضر من ريوهتشا قد احس بها دون ان يجرؤ على قبولها ، اذ ان اهتمامه باعطاء تفسير عقلاني كان واضحا في التحقيق . وقد ورد ذكر البوابة المؤدية الى الساحة عدة مرات تحت اسم بوابة الهلاك . وفي الحقيقة ، ان التفسير الوحيد الذي يبدو مقبولا هو ما قالته بلاثيدا لينيرو ، التي اجابت على السؤال بعقل الام : « لم يكن من عادة ابني ان يخرج ابدا من البوابة الخلفية وهو يرتدي ملابس جيدة » . يبدو انها حقيقة بسيطة ، سجلها المحقق في ملاحظة هامشية ، لكنه لم يثبتها في المحضر .

فيكتوريا غوثمان ، من جهتها ، كانت واضحة في اجابتها بانها لم تكن تعلم هي ولا ابنتها بانهم كانوا ينتظرون سنتياغو نصار لقتله . ولكنها بعد مرور السنوات اعترفت بانهما كانتا تعرفان ذلك عندما دخل الى المطبخ ليتناول القهوة . وقد اخبرتهما بذلك امراة مرت بهما بعد الساعة الخامسة لتطلب قليلا من الحليب كصدقة ، وكشفت لهما كذلك الاسباب والمكان الذي ينتظرونه فيه . « لم احذره لانني ظننت بانها تهديدات سكارى » . قالت لي . ومع ذلك ، فقد اعترفت لي ديفينا فلور في زيارة لاحقة ، عندما كانت امها قد ماتت ، بان هذه لم تقل شيئا لسنتياغو نصار لانها في اعماق روحها كانت ترغب بان يقتل . اما هي فلم تحذره لانها لم تكن حيئنذ سوى طفلة رعديدة ، عاجزة عن اتخاذ قرار خاص ، وقد خافت كثيرا عندما امسكها من معصمها بيد احست انها باردة متحجرة كيد ميت .

اجتاز سنتياغو نصار البيت المظلم بخطوات واسعة ، يلحق به هدير الابتهاج من مركب المطران . سبقته ديفينا فلور لتفتح له الباب ، محاولة الا تجعله يلحق بها بين اقفاص الطيور النائمة في المطبخ ، وبين المفروشات الخيزرانية واصص السرخس المعلقة في الصالة ، ولكن عندما نزعت المزلاج لم تستطع ان تمنع يد الباشق الجارح مرة اخرى . « لقد امسك بي » ، قالت لي ديفينا فلور . ثم اردفت : « وهذا ما كان يفعله كلما وجدني وحيدة في احد اركان البيت ، ولكنني لم اشعر في ذلك اليوم بالخوف المعتاد وانما برغبة جامحة للبكاء » . ابتعدت لتفسح له المجال للخروج ، ومن خلال البوابة المفتوحة رات اشجار اللوز في الساحة ، وقد غطاها بريق الفجر بوهج ثلجي ، لكنها لم تملك الجراة لرؤية اي شيء آخر . قالت لي : عندهاتوقف صفير المركب وبدا صياح الديكة . لقد ثارت ضجة عظيمة ، حتى انني لم استطع ان اصدق بان في القرية مثل هذا العدد الكبير من الديكة ، وفكرت بانها احضرت في مركب المطران » . والشيء الوحيد الذي استطاعت فعله من اجل الرجل الذي لن يكون لها ابدا ، هو انها لم تغلق البوابة بالمزلاج ، متجاوزة بذلك اوامر بلاثيدا لينيرو ، حتى يتمكن من الدخول مرة اخرى الى البيت في حال مجيئه مستعجلا ، وكان شخص لم تعرف هويته ابدا قد دفع من تحت الباب بورقة ضمن مظروف ، ينذر فيها سنتياغو نصار بانهم ينتظرونه لقتله ، ويكشف له كذلك عن المكان والاسباب ، وتفاصيل اخرى دقيقة جدا حول المكيدة . وقد كانت الرسالة على الارض عندما خرج سنتياغو نصار من البيت ، لكنه لم يرها ولم ترها ديفينا فلور ولا اي شخص آخر الا بعض مضي وقت طويل على اقتراف الجريمة .

عندما اعلنت الساعة السادسة ، كانت الانوار العامة ما تزال مضاءة ، وكانت الاكاليل الملونة الخاصة بحفلة الزفاف ما تزال معلقة على اغصان اشجار اللوز وعلى بعض الشرفات ، حتى يمكن للمرء ان يفكر بانهم قد علقوها للتو تكريما للمطران . ولكن الساحة المغطاة بالبلاط حتى مدخل الكنيسة ، حيث كانت تقوم منصة الموسيقيين ، كانت تبدو وكانها مزبلة للزجاجات الفارغة وكل انواع الفضلات المتخلفة من الحفلة العامة . عندما خرج سنتياغو نصار من بيته كان عدد من الاشخاص يهرعون نحو الميناء ، يشدهم صفير المركب .

المحل الوحيد الذي كان مفتوحا في الساحة هو دكان لبيع الحليب يقع في احد جوانب الكنيسة ، حيث كان الرجلان اللذان ينتظران سنتياغو نصار لقتله . صاحبة المحل ، كلوتيلدي ارمينتا ، كانت اول من رآه في تالق الفجر . وطغى عليها احساس بانه يرتدي ملابس من الالمنيوم . « لقد صار يبدو كشبح » . هكذا قالت لي . الرجلان اللذان يريدان قتله كانا قد ناما على المقاعد ، وهما يشدان الى حضنيهما السكاكين الملفوفة باوراق الصحف . فحبست كلوتيلدي ارمينتا انفاسها حتى لا توقظهما .

كانا توامين : بيدرو وبابلو فيكاريو . لهما من العمر اربع وعشرون سنة ، ويشبهان بعضهما الى حد كبير حتى ان تمييزهما يعتبر امرا مجهدا . ومما جاء في محضر التحقيق : « لهمامظهر غليظ ولكنهما من طبيعة طيبة » . ولو كنت انا ، الذي عرفتهما منذ المدرسة الابتدائية ، من كتب التحقيق لقلت نفس الكلام . في هذا الصباح كانا ما يزالان يرتديان البدلات السوداء التي ارتدياها لحفلة العرس . وهي ملابس سميكة ورسمية بالنسبة لمنطقة الكاريبي ، وكان مظهرهما مضطربا بسبب الساعات الطويلة التي امضياها في السهر والشرب ، لكنهما اديا واجب حلاقة ذقنيهما . ومع انهما لم يتوقفا عن تناول الشراب منذ اليوم السابق لحفلة الزفاف ، فانهما لم يكونا مخمورين بعد مرور ثلاثة ايام ، وانما كانا يبدوان وكانهما مسرنمين مؤرقين . ناما مع نسمات الفجر الاولى ، بعد حوالي ثلاث ساعات من الانتظار في دكان كلوتيلدي ارمينتا ، وتلك كانت غفوتهما الوحيدة منذ يوم السبت . وبالكاد استيقظا عندما انطلق صفير المركب ، ولكن الغريزة ايقظتهما تماما عندما خرج سنتياغو نصار من منزله . امسك كل منهما حينئذ بلفافة الصحف ، وبدا بيدرو فيكاريو بالنهوض .

دمدمت كلوتيلدي ارمينتا :

ـ حبا للرب . اتركاه الى ما بعد ، وليكن ذلك احتراما للسيد المطران .

« تلك كانت نفحة من الروح القدس » ، هكذا كانت ترددباستمرار ، وفعلا ، كان خاطرا صادرا عن العناية الالهية ، لكن صلاحيته كانت مؤقتة . فكر التوامان لدى سماع ماقالته لهما ، والذي وقف منهما عاد للجلوس . وتابعا بنظرهما سنتياغو نصار عندما بدا باجتياز الساحة . وتقول كلوتيلدي ارمينتا : « كانا ينظران اليه بتاسف » . في هذه اللحظة كانت طفلات مدرسة الراهبات يجتزن الساحة مسرعات بفوضى وهن يرتدين الملابس الخاصة باليتيمات .

لقد كانت بلاثيدا لينيرو محقة : فالمطران لم ينزل من المركب . اناس كثيرون تجمعوا في الميناء بالاضافة الى السلطات واطفال المدارس ، وفي كل الانحاء كانت توجد اقفاص الديكة المعلوفة جيدا والتي احضروها كهدايا للمطران ، لان حساءاعراف الديكة كان طبقه المفضل . وعلى رصيف الشحن في الميناء كانت ترتفع اكوام كثيرة من الحطب ، كان المركب سيحتاج ساعتين من الوقت على الاقل لشحنها . ولكنه لم يتوقف ، ظهر عند منعطف النهر ، وهو يزمجر كتنين ، وعندما بدات الجوقة الموسيقية بعزف نشيد المطران ، وانطلقت الديكة بالصياح في الاقفاص وبتحريض الديكة الاخرى التي في القرية .

في تلك الحقبة ، كانت المراكب الاسطورية ذات العجلة والتي تتغذى بالحطب على وشك الانقراض ، والمراكب القليلة المتبقية منها في الخدمة لم يعد بها بيانو اوتوماتيكي ولا قمرات من اجل شهر العسل ، ولم تكن قادرة على الابحار بعكس التيار الا بصعوبة بالغة . لكن هذا المركب كان جديدا ، وله مدخنتان بدلا من واحدة يحيط بهما رسم العلم مثل سوار ، وعجلة المؤخرة المصنوعة من الواح متينة كانت تدفع المركب بقوة وكانه سفينة بحرية . وعلى الشرفة العلوية الى جانب قمرة القبطان وقف المطران بمسوحه البيضاء مع بطانته من الاسبان . « انه يقوم بجولة اعياد الميلاد » ، هكذا قالت اختي مارغوت ، وما جرى ، حسب قولها ، ان صفير المركب اطلق دفقة من البخار المضغوط عند مروره بالميناء ، مما بلل الذين كانوا يقفون قريبا من الضفة . لقد كان حلما عابرا : بدا المطران برسم اشارة الصليب في الهواءمقابل الحشود التي في الميناء ، ثم تابع ذلك عن ظهر قلب ، دون تبصر ولا الهام ، الى ان اختفى المركب عن الانظار ولم يبق سوى هياج الديكة .

كانت لدى سنتياغو نصار اسباب للشعور بالغبن . فقد تبرع بعدة شحنات من الحطب بناءعلى طلب الاب كارمن امادور ، وانتقى بنفسه كذلك الديكة ذات اشهى الاعراف لديه . لكنه كان احساسا مؤقتا . فقد لاحظت اختي مارغوت ، التي كانت معه في الميناء ، انه يتمتع بمزاج طيب جدا ، وبحماس لمتابعة الحفلة ، بالرغم من ان قرصي الاسبرين لم يخففا عنه شيئا . وقالت لي : « لم يكن يبدو عليه انه مصاب بالزكام ، وكان يفكر فقط بما كلفته حفلة الزفاف » ، وكشف كريستو بيدويا ، الذي كان معهما ، ارقاما ضاعفت دهشته . فقد كان في حفلة الزفاف مع سنتياغو نصار ومعي الى ما قبل الساعة الرابعة بقليل ، لكنه لم يذهب الى بيت والديه ، وانما بقي يتسامر في بيت جديه . وهناك حصل على معطيات كثيرة كانت تنقصه ليسحب تكاليف حفلة الزفاف . فروى لهما بانهم قد ذبحوا اربعين ديكا روميا واحد عشر خنزيرا للمدعوين ، واربعة عجول وضعها العريس للشواء في الساحة العامة من اجل اهل القرية ، وروى لهما انه تم استهلاك (٢٠٥) صناديق من المشروبات الروحية المهربة ، وحوالي (٢٠٠٠) زجاجة من روم القصب وزعت على الحشود . ولم يبق شخص واحد ، لا غني ولا فقير ، الا وشارك بطريقة او بلخرى في اضخم حفل زفاف شهدته القرية . وحلم سنتياغو نصار بصوت عال قائلا :

ـ هكذا سيكون عرسي ـ لن يمتد بكم العمر لحساب تكاليفه .

احست اختي بمرور الملاك ، وفكرت مرة اخرى بحظ فلورا ميغيل الطيب ، التي اصابت اموراكثيرة من الحياة وستحصل فوق ذلك على سنتياغو نصار في عيد الميلاد لهذه السنة . قالت لي : « لقد تنبهت فجاة بانه لا يمكن وجود مكسب اكبر منه . تصور : انه جميل ، وجدي ، ويمتلك ثورة خاصة وهو لا يزال في الحادية والعشرين من العمر » . لقد اعتادت ان تدعوه لتناول الافطار في بيتنا عندما نصنع فطيرة اليكة ، وقد كانت والدتها تصنعها في ذلك الصباح ، وافق سنتياغو نصار على الدعوة بحماس .

ـ سابدل ملابسي والحق بك . هكذا قال لها ، ثم تذكر انه نسي الساعة على الكوميدينو ، فسالها ـ كم الساعة الان

كانت الساعةالخامسة وخمس وعشرون دقيقة . امسك سنتياغو نصار بذراع كريستو بيدويا وقاده باتجاه الساحة وهو يقول لشقيقتي :

ـ خلال ربع ساعة ساكون في بيتكم

اصرت عليه بان يذهبا معا في الحال لان الافطار اصبح جاهزا . وقد اخبرني كريستو بيدويا بانه « كان اصرارا غريبا ، حتى انني ظننت احيانا بان مارغوت كانت على علم بانهم سيقتلونه وارادت ان تخبئه في بيتكم » . ومع ذلك ، فقد اقنعها سنتياغو نصار بان تسبقه ريثما يذهب ليرتدي ملابس ركوب الخيل ، لانه سيذهب مبكرا الى مزرعة الديفينو روسترو ليخصي عجولا ودعها بيده بنفس الطريقة التي ودع بها امه ، وابتعد باتجاه الساحة ممسكا بذراع كريستو بيدويا . كانت تلك هي المرة الاخيرة التي تراه فيها .

كثيرون من اولئك الذين كانوا في الميناء كانوا يعرفون بان سنتياغو نصار سيقتل . فدون لاثارو ابونتي ، الكولونيل المتقاعد براتب جيد وعمدة القرية منذ اكثر من احدى عشرة سنة اشار له باصابعه محييا . وقد قال لي فيما بعد : « كانت لدي اسباب واقعية جدا لاعتقد بانه ليس معرضا لاي خطر » . والاب كارمن امادور لم يهتم ايضا ، وقال لي : « عندما رايته سالما معافى ظننت ان الامر كله لم يكن سوى اكذوبة » . لم يتساءل اي فهم اذا ما كان سنتياغو نصار على علم . فقد بدالهم جميعا بانه من المستحيل انلا يكون قد علم .

في الحقيقة ، ان اختي مارغوت كانت من الاشخاص القلائل الذين كانوا يجهلون بانه سيقتل . « لو انني كنت اعلم ، لاصطحبته الى بيتنا حتى لو اضطررت لتقييده » . هكذا صرحت للمحقق . وقد كان غريبا ان لا تعلم . ولكن الاكثر غرابة هو ان امي كذلك لم تكن تعلم ، مع انها كانت تعرف بكل الامور قبل جميع من في البيت ، بالرغم من انها لم تخرج منذ سنوات ولاحتى الى الصلاة ، وكنت اقدر هذه الصفة فيهامنذ بدات استيقظ مبكرا لاذهب الى المدرسة . كنت اجدها كما كانت في ذلك الحين : داكنة وصامتة ، وهي تكنس الباحة بمكنسة من فروع الاشجار في وهج الصباح الرمادي وما بين كل رشفة من القهوة كانت تروي لي ماحدث للناس بينما نحن نائمون . كانت تبدو وكان لها خيوط اتصال سرية مع اهل القرية الاخرين ، وخصوصا اولئك الذين في مثل سنها ، وكانت تفاجئنا احيانا باخبار سابقة لوقوعها ما كان لها ان تعرفها الا بفنون الكهانة . ومع ذلك فانها لم تشعر في ذلك الصباح بنبض الماساة التي كانت تتكامل منذ الثالثة فجرا . كانت قد انتهت من كنس الباحة ، وعندما خرجت شقيقتي مارغوت لاستقبال المطران وجدتها تطحن اليكة من اجل الفطير . كانت تسمع اصوات ديكة » . هكذا اعتادت امي ان تتذكر ذلك اليوم ، ولكنها لم تربط الضجة النائية بوصول المطران ، وانما باخر اثار حفلة الزفاف .

كان بيتنا بعيدا عن الساحة ، وسط غابة من اشجار المانغا مقابل النهر . وقد ذهبت اختي مارغوت الى الميناء وهي سائرة بمحاذاة الضفة ، كان الناس هائجين جدا بزيارة المطران مما جعلهم لا يهتمون بالقضايا الاخرى . كانوا قد وضعوا المرضى مضجعين امام الابواب ليتلقوا الدواء الرباني ، وخرجت النسوة راكضات وهن يحملن الديكة الرومية والخنانيص وجميع اصناف الماكولات ، واتت من الضفة المقابلة زوارق مزينة بالزهور ، ولكن بعد ان مر المطران دون ان يترك اثاره على الارض ، حصل الخبر الاخر المقموع على حجمه الصارخ . حينئذ علمت اختي مارغوت بالخبر كاملا وبطريقة فظة : فالصبية الرائعة انخيلا فيكاريو ، التي تزوجت في اليوم السابق ، اعيدت الى بيت والديها ، لان زوجها وجدها غير عذراء . « احسست بانني انا التي ستموت » ، قالت لي اختي ، وتابعت : « ولكن بقدر ما قلبوا الامر على وجوهه ، فان احدا لم يستطع ان يفسر لي كيف تم توريط سنتياغو نصار المسكين في خديعة كهذه » . والشيء الوحيد الذي كانوا يعرفونه بكل تاكيد هو ان شقيقي انخيلا فيكاريو ينتظرانه لقتله .

رجعت اختي الى البيت وهي تمسك نفسها من الداخل عن البكاء . فوجدت والدتي في المطبخ ، مرتديه ثوبا من تلك الثياب المخصصة لايام الآحاد مزينا بزهور زرقاء ، ليكون مظهرها لائقا اذا ما جاءالمطران ليسلم علينا . وكانت تغني اغنية الحب اللامرئي وهي تعد المائدة ، لاحظت اختى ان ثمة كرسيا زائدا عن العادة . فقالت لها امي :

ـ انه لسنتياغو نصار . فقداخبروني بانك دعوته لتناول الافطار

فقالت لها اختي :

ـ ارفعيه .

ورت لها حينئذ ، القصة وقد قالت لي اختي فيما بعد ، « لكنها كانت تبدو وكانها على علم . لقد حدث نفس ما يحدث دائما ، فما ان يبدا احد بحكاية شيء لها ، وقبل ان تصل الحكاية الى منتصفها تكون قد عرفت كيف ستنتهي » . وذلك الخبرالمشؤوم كان عقدة ملغزة بالنسبة لامي ، لقد اختاروا هذا الاسم لسنتياغو نصار من اجل اسمها ، كما كانت هي ايضا عرابته في العماد ، ولكنها كانت كذلك على صلة قرابة دم مع بورا فيكاريو ، والدة العروسة المعادة ، ومع ذلك ، ما كادت تنتهي من سماع الخبر حتى لبست حذاءها ذي الكعب ووضعت على راسها طرحة الكنيسة التي لم تكن تستخدمها في ذلك الحين الا لزيارات التعزية . خرج والدي ، الذي كان يسمع كل شيء وهو في السرير بالبيجاما وسالها مذعورا الى اين هي ذاهبة :

فاجابت :

ـ لاحذر صديقتي بلاثيدا ـفليس عدلا ان يعرف الجميع بان ابنها سيقتل وتبقى هي الوحيدة التي لا تعلم . قال ابي :

ـ ان اواصر كثيرة تربطنا بها كما تربطنا اواصر كثيرة بآل فيكاريو .

فقالت : يجب ان نكون دائما الى جانب الميت .

بدا اشقائي الصغار بالخروج من الغرف الاخرى . وانطلق الاطفال منهم بالبكاء وقد امسوا بنفحة الماساة ، لم تولهم والدتي اهتماما للمرة الاولى في حياتها كما لم تول اهتماما لزوجها :

قال لها :

ـ انتظري ريثما البس ثيابي .

كانت قد اصبحت في الشارع . وكان شقيقي خيمي ، الذي لم يكن له من العمر يومها اكثر من سبع سنوات ، هو الوحيد الذي يرتدي ملابسه المدرسية .

فامره والدي :

ـ رافقها انت .

ركض خيمي وراءها دون ان يدري ما الذي يحدث ودون ان يعرف وجهتها ، وامسك بيدها ، وقد روي لي خيمي انها « كانت تتحدث لوحدها قائلة بصوت منخفض : رجال اشرار ، حيوانات خراء ليسوا بقادرين على عمل شيء سوى المصائب » ، لم تنتبه حتى الى انها تمسك بالطفل بيدها . « لا بد وانهم يظنون باني اصبت بالجنون » هكذا قالت لي ثم اردفت : « الشيء الوحيد الذي اتذكره انه كان يسمع من بعيد ضجيج اناس كثيرين ، وان حفلة الزفاف عادت لتبدا من جديد ، والجميع كانوا يركضون باتجاه الساحة . اسرعت خطواتها ، مصممة على انها قادرةعندما يكون الامر متعلقا بحياة الانسان ، الى ان اشفق عليها شخص كان يركض بالاتجاه المعاكس فصرخ بها وهو يمر بجانبها :

ـ لا تزعجي نفسك يا لويسا سنتياغا . لقد قتلاه .

رسم احمد صفاوي